المجلد الثامن والعشرون للعام ٢٠٢٤م
حولية كلية اللغة العربية للبنين بجرجا

النظريَّة الأدبيّة عند حسين الواد

Literary theory according to Hussein Al-Wad

بقلم

بدرية علي مهدي آل الحرشان

طالبة دكتوراه في الأدب الحديث قسم اللغة العربيَّة

كلية الآداب جامعة أم القرى ـ المملكة العربية السعودية

الترقيم الدولى/ ISSN: 2356 - 9050

العدد الثاني من إصدار يونيه ٢٠٢٤م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٢٠٢٤/٦٩٤٠م

النظريّة الأدبيّة عند حسين الواد

بدرية علي مهدي آل الحرشان

طالبة دكتوراه في الأدب الحديث قسم اللغة العربيّة ـ كلية الآداب جامعة أم القرى ـ المملكة العربية السعودية.

البريد الإلكتروني : balhershan@ut.edu.sa

الملخص

تتناول هذه الدراسة مفهوم النظرية الأدبيّة عند حسين الواد (١٩٤٨ – ٢٠١٨م)، الذي يُعَدّ من أهم روّاد النّقد الأدبيِّ المعاصرين في تونس، وقد عالج الواد الكثير من القضايا الأدبيّة والنقدية في مؤلّفاته، التي حوت العديد من مرئيّاته المتبلورة في فكره لسنوات طويلة، عكف فيها على دراسة الأدب في سياق اهتمامه بالنظريّات والمناهج الحديثة في مختلف الفنون، ولا سيما الشِّعر، وكان موضوع (التنظير للأدب) من أهمِّ الموضوعات التي حاول مقاربتها رغم تشعُّب هذا الموضوع ، وتعدُّد مسائله، وترامي أطرافه، وفي السياق نفسه تقتضي الدراسة البحث في نقد النّقد بوصفه ممارسة تتبُّعية داخل الخطاب النقدي؛ مما يستلزم التطرّق لرصد دراسته للنظريَّة الأدبية التي تتضمّن المجالات والقضايا التي تؤسّس لنواة النظريَّة، من ذلك على سبيل المثال: دراساته في (الأدب والتنظير) ، و(مسألية المناهج في التعامل مع الظاهرة الأدبية)، و(مفهوم الانعكاس في النَّقد الأدبي الحديث)، و(في الأدب ودرسه: سياق جديد، ومهامٌ جديدة) ، و(مسألة القيمة) ، و(الخاصّية الخاصّة التي تميّز الأدب)، و(وظيفة الأدب)، و(المحاكاة: مفهومها وأثرها في النَّقد العربي القديم). ونكتفي في هذه الدراسة برصد جهود الواد في التنظير للأدب من خلال مقاربته (التنظير والأدب).

الكلمات المفتاحية: الأدب ، النظريّة ، حسين الواد ، النظريّات الأدبيّة ، المناهج الأدبيّة ، القيمة في الأدب ، وظيفة الأدب ، النّقد العربيّ.

Literary theory according to Hussein Al-Wad

Badriya Ali Mahdi Al Harshan
PhD student in Modern Literature, Department of Arabic Language, College of Arts, Umm Al-Qura University, Kingdom of Saudi Arabia.
Email: balhershan@ut.edu.sa

Abstract

The study deals with the concept of literary theory by Hussein el-Wad (1948-2018), who is one of the most important contemporary pioneers of criticism in Tunisia, and el-Wad has addressed many literary and critical issues in his writings, which contained many of his crystallized visions in his thought for many years, in which he has been studying literature in the context of his interest in modern theories and approaches in various arts, especially poetry, and the topic of (theorizing for literature) was one of the most important topics that he tried to approach despite its complexity, multiplicity of issues, and and if we try to monitor his study of literary theory, we find that it includes the areas and issues that establish the core of the theory, for example: His studies are in (literature and theory), (the issue of approaches in dealing with the literary phenomenon), (the concept of reflection in modern literary criticism), (in literature and its study: a new context, new tasks), (the question of value), (the special property that distinguishes literature), (the function of literature), and (simulation: its concept and impact in ancient Arabic criticism). In this study, we are content to monitor al-Wad's efforts in theorizing literature through his approach (theorizing and literature).

Keywords: literature, theory, Hussein Al-Wad, literary theories, literary approaches, value in literature, function of literature, Arab criticism.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة:

يحتلّ مفهُوم النظريَّة تخصُّصًا قائمًا بذاته له معاييره وإجراءاته، كما أنَّ لـه أنصاره ومناهضيه، وهُو من أكثـر المفـاهيم تعقيـدًا وتشـعُّبًا، والأوسـع فـي الاستعمال(١)، ومصطلح النظريَّة Theory في اللُّغات الغربيّة يستمدُّ معنـاه مـن الجذر اليونانيِّ الذي يعني النَّظر والرُّؤية البصريَّة، مع معنى الحقيقـة والمعرفـة المجرَّدة من الغايات والنَّفعيَّة، ثُمَّ تعمّقت دلالته؛ ليدلَّ علـى معـانٍ عـدَّة؛ مثـل: التَّأمُّلات العقليَّة، والفصل، والتَّقطيع، والتّخصيص(٢)، وتُقدِّم المعاجم العربيَّة جـذرًا عربيًّا ضعيف الصلة بمصطلح النظريَّة بمعناه المعاصر الحديث، فضلًا عن خُلُوِّها من صيغته الصَّرفيَّة المعاصرة، فهي تقدِّم المعنى الحسِّيَّ على الذهنيِّ غالبًا؛ ففـي اللُّغة، نقُول: (نظرتُ إلى الشَّيْء) بمعنى: أبصرتُه، وتأمَّلتُه بعيني، وهذا النَّظر الذي يقع على الأجسام، ويكُون بالأبصار، ويكثر استعماله عند العامَّة. ويأتي إيراد لفظة النَّظر في اللغة بمعنى: تأمَّل القلب، وتفكَّر فيه، وتدبَّره، ويكُون بالبصـائر ويكثـر استعماله عند الخاصَّة(٣)، وفي لسان العرب (النَّظر) "الفكر فـي الشَّـيء تُقـدره، وتقيسه منك"(٤)، و(النظريَّة) في المعاجم العربيَّة الحديثة، هي: القضيّة التي تُثبـت ببرهان، فقد أسبغت على مُصطلح النظريَّة بصيغته الصَّرفيَّة المحدَّدَة دلالة جديدة، تبتعد عن المعنى الحسِّيِّ، وتلتصق بالنَّظر العقلي والـذِّهنيِّ(٥). و(النظريَّـة) فـي الفلسفة هي: "طائفة من الآراء تُفسِّر بها بعض الوقائع العلميَّة أو الفنيَّة"(٦)، أو هي:

---

(١) الرويلي والبازعي، ٢٠٠٥م، ص. ٢٧٥، البطحاوي، ٢٠٢٢م، ص. ١٠.

(٢) الرويلي والبازعي، ٢٠٠٥م، ص. ٢٧٥.

(٣) الجوهري، ١٩٨٧م، ص. ٨٣٠.

(٤) المصري، ١٩٨٤م، ص. ٢١٧.

(٥) البطحاوي، ٢٠٢٢م، ص. ١١.

(٦) مجمع اللّغة العربية، ٢٠٠٤م، ص. ٩٣٢.

"تركيبٌ عقلي، مؤلَّف من تصوّرات منسّقة، تهدف إلى ربط النتائج بالمبادئ"(١)، ويؤكد جوناثان كولر Jonathan Collier على أنّه يجب التنبُّه إلى الخطورة التي تحملها الإجابة عن سؤال محدَّد حول ماهيّة النظريَّة؛ إذ إنّ من الصعب الإجابةَ عن هذا السؤال في صيغة محددة؛ لأنّ النظريَّة أكثر من مجرّد فرضيّة محدّدة، فهي شبكة من المسلَّمات، والفرضيّات المركبة، يقول: "إنّ النظريَّة يجب أن تكون شيئًا أكثر من الفرض، إنها لا تستطيع أن تكون واضحة، وتنطوي على علاقات معقّدة لنوع نسقي معين بين العديد من العوامل، كما لا يمكن تأكيدها أو دحضها بسهولة"(٢) فهي – لما يقابلها من الممارسات العملية في مجال الواقع، أو ما يقابل العمل في المجال المعياريّ، أو المعرفة العامّية، أو اليقينيّة، أو الحقائق العلميَّة الجزئيّة – قابلةٌ للدراسة والقبول والدحض، وكلٌّ من هذه الفرضيات يخضع لضوابط، ولا يمكن إثباتها أو ردُّها بسهولة. ووفقًا لذلك فالنظريَّة في الاصطلاح: "نسقٌ من المعرفة المعمَّمَة، التي تعطي تفسيرًا للجوانب المختلفة من الواقع"(٣)، والنظريَّة ترتبط بالممارسة في كون الأخيرة جزءًا لا يتجزّأ منها، فهي معيار صدقها من جهة، وهي مَن تصنع المشكلات، وتطلب حلها من جهة أخرى، وتختلف عنها في أن النظريَّة عكس الواقع، وتمثّله روحيًّا وعقليًّا(٤). وتنبع أهمية النظريات العلميَّة من كونها تستند إلى خلفيّات فلسفيّة ومعرفية، فلا يمكن فهمها فهمًا شاملًا دون الرجوع إلى تلك الخلفيات التي تُضمر داخلها تصورًا للكون والإنسان، وعلى ذلك فالنظريات العلميَّة بمختلف ألوانها لا يمكن أن تَسلم من أيديولوجيّة تضبط معاييرها، ووسائلها، وغاياتها.

---

(١) صليبا، ١٩٨٢م، ص. ٤٧٧.

(٢) كوللر، ١٩٩٧/ ٢٠٠٣م، ص. ١٦.

(٣) مجموعة مؤلّفين، ١٩٨١م، ص. ٥٣٢.

(٤) أومادن، ٢٠١٦م، ص. ١٩٣.

تبحث هذه الدراسة عن دواعي حسين الواد إلى التأليف في قضايا ومجالات النظرية الأدبية الشائكة والمتفرعة؟ يقول الواد: "اختياري لهذا الموضوع –وهو على الحقيقة شاسع مترامي الأطراف، متشعب المسائل– دعت إليه دواعٍ ذاتيّة وأخرى موضوعية"(١)، وتتمثّل **بواعثه الذاتيّة** في أن الجيل الذي ينتمي إليه من النُّقاد في السبعينيّات من القرن العشرين كان مأخوذًا بالنظريات الأدبية والنقدية والطرائق المتعلمنة –كما كان الجيل الذي سبقهم مبهورًا بمنهجيّة تاريخ الأدب مثل: جرجي زيدان، وطه حسين، والزيات، والرافعي– فاهتموا بالمفاهيم تنظيرًا وتطبيقًا، مثل: الشعريَّة، والإنشائية، والنصانية، والسيمولوجيا، والسردية،كما بذلوا الجهود المضنية في سبيل إدخالها في مناهج التعليم العامّ، والمعاهد والجامعات، لكن نتائج ذلك التنظير جاءت مخيبة للآمال وبعكس المأمول والمتوقع منها، فأصبحت الدراسات تكرر بعضها، وتحول الدرس الأدبي القائم على المناهج العلميَّة إلى تمارين مستعصية، ورموز معماة، ورسومات بيانية لا يفهمها إلا أصحابها(٢)، لقد هاجم الواد الطريقة التي يدرس بها الأدب جنبًا إلى جنب مع الممارسات والنظريات التي كانت تعارضه، وتحتجُّ عليه، وكيف أنّ الأدب أصبح يُدرس في الجامعات والمدارس بعكس ما بشّر به، فما الجدوى إذنْ من الأدب؟ ولماذا ندرسه؟ وما الرهان الذي سنجنيه من تلك الدراسة؟

- **مشكلة الدراسة**:

تكمن مشكلة البحث في السؤالين الآتيين:

١– ما الذي دعا الواد إلى التأليف في قضايا ومجالات النظرية الأدبية الشائكة والمتفرّعة؟

٢– ما الجدوى من دراسة الأدب؟ ولماذا ندرسه؟ وما النتائج الذي سنجنيه منها؟

---

(١) الواد، ٢٠٠٩م، ص. ١٧٣.

(٢) الواد، ٢٠٠٩م، ص. ١٧٣.

قادنا السؤالان الرئيسان عن مشكلة الدراسة إلى التساؤلات الآتية:

- **أسئلة الدراسة**:

– ما المقصود بالنظرية الأدبية؟ وكيف نشأت؟ وما أطوارها؟
– ما تعريف النظرية الأدبية عند أهمِّ منظِّريها من النّقاد الغربيّين والعرب؟
– ما الجدوى من التنظير للأدب عند حسين الواد؟
– ما الفرق بين مفهوم القراءة وبين التنظير للأدب؟
– ما مسوِّغات التأليف في النظرية الأدبية؟
– ما مجالات النظرية الأدبية؟
– ما حدُّ الأدب؟
– ما العلاقة بين القيمة والتنظير للأدب؟

- **أهداف الدراسة**:

يهدف البحث إلى دراسة موقف حسين الواد من النظرية الأدبية من خلال الآتي:

– الوقوف على بواعث تأليفه في النظرية الأدبية.
– مدى إسهام النّقاد العرب في الكشف عن جوهر النص، ووظائفه التأثيرية والجمالية.
– الكشف عن مسوّغات التأليف في النظرية الأدبية عند الواد.
– الوقوف عند أهمّ مسائل النظرية الأدبية عند حسين واد؛ كحدّ الأدب، والقيمة.

- **أهمّية الدراسة**:

تنبع أهمية الدراسة من أنها تسعى إلى رصد موقف حسين الوَاد في النظرية الأدبية، وهو ناقد أصيل في الفكر والنّظر، له إسهاماته الثَّرَّة في المشهد الثّقافي الأدبيّ، والنّقديّ على مدى أكثر من أربعين عامًا، وقد توزّعتْ جهوده بين النّظريّات، المفاهيم النقديّة، مناهج النّقد الأدبيّ، والشّعريات القديمة، وهو في كل ذلك يبحث عن أقوم السبل؛ لتجديد النّقد الأكاديمي، والوصول به إلى الأخذ بحظٍّ من العلميّة، في سياق الصراع المألوف بين التيّارات المحافظة، والتوجّهات التجديدية.

إن مناقشة تجربة حسين الوَاد وجُهُوده، هو حديث في الوقت ذاته عن مُنجزات المدرسة التُّونسيّة في التحديث التفكريّ والنّقد الأدَبي، حيثُ استطاعت أن تُسجّل حضورها المميَّز في الساحات الأدبية، والنّقديّة العربية.

- **منهج الدراسة**:

اتخذت الدراسة من المنهج الاستقرائي أساساً؛ لتتبع جهود حسين الواد في التنظير للأدب، كما أنها وَظَّفتْ التحليل بصفته أداة من الأدوات المنهجية، بما يخدم الدراسة في الوصول إلى نتائج ذات جدوى.

الدراسة:

أولًا: النظريَّة الأدبية - النشأة والتطور

يسجل القرن الرابع قبل الميلاد البدايات الأولى لنظريَّة الأدب، وتحديدًا في المبادئ التي صاغها أفلاطون Plato ، ثم أرسطو Aristotle في أول كتاب يؤصّل للنظريَّة في التاريخ، وهو: (فن الشِّعر)، وإن سبقه بعض الآراء المتفرقة، والأقوال المتناثرة التي تدور حول طبيعة الأدب، ووظيفته، وغاياته، ويرى هوميروس Homeros –على سبيل المثال– أن غاية الشِّعر الإمتاع الذي يولّده نوع من السحر، ويرى هسيود Hesiod أن وظيفة الشِّعر هي: التعليم، ونقل الرسالة السماوية، ويشهد القرن السادس قبل الميلاد صراعًا بين الفلاسفة والشعراء قد قام على أساس النظر إلى الشِّعر، والدفاع عنه من منطلق أخلاقي أو مجازي يحجب الحقائق العلميَّة والأخلاقية.

وعلى ذلك لا يمكننا التغاضي عن أن نظريَّة الأدب كانت متأرجحة التطور، فلم تَسِر على وتيرة واحدة خلال مراحل نشأتها الزمنية، بل شهدت في بعض مراحلها توسعًا في الطروحات والدراسات في المسائل والظواهر الأدبية، فعلى سبيل المثال لم تبلغ النظريَّة الأدبية مرحلة النضج –على الرغم من الدراسات الريادية– إلّا في السبعينيّات من القرن العشرين، فقد كانت النظريَّة الأدبية مع الشكلانيين الروس أكثر التصاقًا بالعلميَّة، وازدهرت مع التنظير للمناهج الأدبية

والنقدية، والتأصيل لقضاياهم، ومنذ ذلك الحين طرأت العديد من التحولات العميقة في التنظير على العديد من المصطلحات والمفاهيم، مثل: المعنى، والأدب، والقراءة[١]، وفي وفي الثمانينيّات الميلادية من القرن العشرين برزت النظريَّة بوصفها محطة تحاور ونقاش في ميادين الدراسات الأدبية، بين أنصار مدافعين عنها، وخصوم يهاجمونها، وتركزت موضوعاتها حول علاقتها بالمعرفة، والتجربة، وعلم الجمال، وقد انعكست آثار ذلك الجدل على الأدب الذي ارتبط بها بوصفه تخصصًا، فكان من الضرورة بمكان إرساء قواعد معرفية جامعة له تتجاوز الاهتمام بالتجربة الجماليَّة والذوق، وتطور الأمر عند منظِّري الأدب الذين جعلوا من المعرفة والدرس العلمي المتجرد من أساسيات وغايات الأدب[٢].

وفي أواخر القرن العشرين ازدهرت النظريات في العلوم الطبيعية والإنسانية على السواء؛ حيث سعت إلى ضبط النسق المعرفي المنظم المتكامل، الذي لا ينفصل عن الممارسة الإجرائية التطبيقية، ونشأت من ضمنها النظريَّة في الدراسات الأدبية التي يتصدى الدارس الأدبي في بداية عمله إلى تصنيف مادتها على نحوٍ آلي، وبحسب الحدود المميزة لكل نوع؛ مثل: الشعر، والرواية، والمسرحية، وغيرها، لكن الأسئلة التي قد يتوقف الدارس عندها طويلًا، ويجد في الإجابة عنها عقبات وصعوبات عدة تلك التي مدارها حدود الأدب وتمييزه عن غيره، وما الذي يجعل من العمل الأدبي عملًا أدبيًّا؟ وهل الذي يميز الأدب لفظه أو معناه؟ الصورة أو الإطار الجمالي؟ الأسلوب أو العرض؟ أم أن الأدب محاكاة فنيّة؟ وإن كان كذلك فما موضوعها؟ وغير ذلك من الأسئلة التي تتمحور حول طبيعة الأدب ونشأته ووظائفه وعلاقاته[٣]. إنّ الإجابة عن هذه التساؤلات أعسر مما تبدو في ظاهرها، فكثير من أصحاب النظريات مثل رنيه وليك وآوستن وآرن (١٩٤٨/ ١٩٩٢م)

(١) إيجلتون، ١٩٨٣/ ١٩٩٥م، ص. ١١.

(٢) الرويلي والبازعي، ٢٠٠٥م، ص. ٢٧٧.

(٣) الماضي، ١٩٩٣م، ص. ٩.

اللذين يزعمان أنّ الأدب غير قابل للدراسة بالمرة، فنحن لا نملك الحقائق عنه، وسبب ذلك يعود إلى أن النظريات تتباين من ناقد إلى آخر، ومن مرحلة إلى أخرى، وإن أساس الإشكالية يكمن في فقدان الأساس العقلي لمعالجة الفن، والفن الأدبي على وجه الخصوص، ولعلَّ من أهم الإجابات التي اجتهد أصحاب النظريات في صياغتها أنه يمكن الوصول إلى ذلك بالوسائل التي تتبع في دراسة العلوم الطبيعية، وتشمل عدة أنماط؛ مثل: جمع الحقائق والتمثيل بها، أو دراسة أصول العمل الفني على أساس التتابع الزمني، أو السببية العلميَّة التي تصل إلى تفسير الظواهر الأدبية من خلال العوامل المؤثرة، والنظريات البيولوجية في تتبع تطور الأدب، إنّ أمثال هذه الدراسات لم تؤتِ ثمارها المرجوّة إلّا في مجالات محدودة؛ فالدراسة الأدبية لها مناهجها العقلية الخاصة التي ليست دائمًا هي مناهج العلوم الطبيعية، التي اختطَّتها لنفسها؛ لتحقيق المعرفة قبل التطور العلمي(١). مما سبق نستخلص أن النظريَّة الأدبية يتنازعها تعريفان، هما:

التعريف الأول: يمثّله جوناثان كوللر (١٩٩٧/ ٢٠٠٣م) الذي يرى: أنها ليست تقريرًا لطبيعة الأدب، أو مناهج دراسته(٢)، بل بناءً ديناميًّا، أو مجموعة لا متناهية من الآراء، والقوانين، والفرضيات، والمعلومات الشاملة والمتضمنة علوم عدّة مثل: الأنثروبولوجيا، والفنّ، والتاريخ، والدراسات السيميائيّة، والفلسفة، وعلم الاجتماع وغيرها.

أمّا **التعريف الثاني:** فيمثله شكري الماضي (١٩٩٣م)، الذي يرى أن النظرية الأدبية هي: "مجموعة من الآراء والأفكار المتّسقة والعميقة والمترابطة والمستندة إلى نظريَّة في المعرفة أو فلسفة محددة، التي تهتم بالبحث في نشأة الأدب وطبيعته

(١) ص. ٢٤، ٢٥، ٢٦.

(٢) ص. ١٧.

ووظيفته، وهي تدرس الظاهرة الأدبية انطلاقًا من هذه الزوايا في سبيل استنباط وتأصيل مفاهيم عامة تبين حقيقة الأدب وآثاره"[١].

عالج حسين الواد الكثير من القضايا الأدبية والنقدية في مؤلفاته، التي حوت العديد من مرئياته المتبلورة في فكره لسنوات طويلة، عكف فيها على دراسة الأدب في سياق اهتمامه بالنظريات والمناهج الحديثة في مختلف الفنون، ولا سيما الشِّعر، وكان موضوع (التنظير للأدب) من أهم الموضوعات التي حاول مقاربتها رغم تشعبه، وتعدد مسائله، وترامي أطرافه، وإذا حاولنا رصد دراسته للنظريَّة الأدبية نجدها تتضمن المجالات والقضايا التي تؤسس لنواة النظريَّة، من ذلك على سبيل المثال: دراسته (الأدب والتنظير)، وفي (مسألية المناهج في التعامل مع الظاهرة الأدبية) و(وظيفة الأدب) وغيرها، وهنا يبرز سؤال مفادُه: ما الذي دعا الواد إلى التأليف في قضايا ومجالات النظرية الأدبية الشائكة والمتفرعة؟ يقول الواد: "اختياري لهذا الموضوع، وهو على الحقيقة شاسع مترامي الأطراف، متشعّب المسائل، دعت إليه دواعٍ ذاتية وأخرى موضوعية"[٢].

والحقيقة أنَّ هذه المشكلات قد رصدها أكثر من منظر، فقد وصفها كل من: رنيه وليك، وآوستن وآرن (١٩٤٨/ ١٩٩٢م) بأنها عقبات لا يمكن تجاوزها، وجميع محاولات إخضاع الأدب للقوانين العامة قد باءت بالإخفاق التامّ، وتقتضي الحلول في البتّ في قضايا، مثل: تصنيف العلوم، وفلسفة التاريخ، ونظريَّة المعرفة، مع الجمع بين العلم والتاريخ في منهجٍ واحد ينتهي إلى جمع الحقائق، أو التوصل إلى قوانين تاريخية عامة، وهناك حلٌّ آخر يتمثل في نفي صفة العلم عن الدراسات الأدبية، والتأكيد على فردية العمل الأدبي ووحدانيته التي لا تنفصل عن الخواصّ العامّة، فكل عمل فني هو عامّ وخاصّ في آنٍ واحد، لكن هناك أخطار جليّة تحفّ هذا الحلّ، فقد يقود الناقد إلى التقدير الشخصي والعاطفي والإغراق في الذاتية المناهضة للأسلوب العلمي[٣].

(١) ص. ١٢.
(٢) الواد، ٢٠٠٩م، ص. ١٧٣.
(٣) ص. ٢٧، ٢٩.

أمّا **الباعث الموضوعي**: فيتمثل عند الواد في تباين اهتمام أهل النظريات والنقاد بالتنظير للأدب، واختلاف تلك العناية من مرحلة إلى أخرى، ومن زمن إلى آخر، والحقيقة كان للأدب منظِّرون كبار لم يخلُفهم تلامذة نابهون، وآخرون هجروا الأدب وقضاياه، وانشغلوا بحقول أخرى، ومنهم من انكفأ نحو تاريخ الأدب، وتحقيق النصوص، وبذلك أصبحت نظريَّة الأدب تُدرس بعيدًا عمّا كانت تبشّر به(١).

ولعلَّ من المفيد أن نرد على هذين الباعثين؛ ففي الباعث الذاتي نجد أن نظريَّة الأدب في تسعينيّات القرن العشرين لم تقف عند حدود المصطلح فحسب بلِ اتّسعت لتشمل المناهج النَّقديَّة، كما نجد ذلك عند تيري إيغلتن Terry Eagleton ، ورامان سلدن Raman Seldon ، وجونثان كوللر Jonathan Clare هذا التوسع كان على حساب حدود المصطلحات التي تداخل بعضها مع بعض، فلا يكاد يميز بين العلم، والنظريَّة، والمنهج، بل إن محتوى المؤلفات يكاد يكون نفسه على الرغم من اختلاف عناوينها، فبعضها يحمل وسم مناهج النَّقد الأدبي، والأخرى تحمل اسم نظريَّة الأدب، منها على سبيل المثال: (دليل القارئ للنظريَّة الأدبية المعاصرة) لسلدن Seldon، (النظريات النَّقديَّة المعاصرة) للويس تايسون louis tayson(٢) . وعلى ذلك فإن نظريَّة الأدب تحتوي المنهج كجزء من تركيبها أو إحدى طبقات تكوينها المتعدد، لكنها لا تصوغه أو تسعى إلى تكوين عناصره، أو التنظير له، وكما عبر كوللر Clare (١٩٩٧/ ٢٠٠٣م) "أن النظريَّة في الدراسات الأدبية ليست تفسيرًا لطبيعة الأدب أو مناهج دراسته.. إنها لفيف من الفكر والتأليف يصعب تعيين حدوده"(٣)، وكما تنبه لذلك الواد (٢٠٠٩م) بقوله: "أشير إلى ما يُعرف بالنقد

(١) الواد، ٢٠٠٩م، ص. ١٧٣.

(٢) بطحاوي، ٢٠٢٢م، ص. ٦٣، ٦٤.

(٣) ص. ١٧.

النفساني، والنقد الاجتماعي، والأناسي أو الأنثروبولوجي، وبعض المذاهب الفلسفية والعقائدية قد اقتحمت الأدب"[١].

أمّا ما يخصّ الباعث الموضوعي فلا شكّ بأن النظريَّة الأدبية تباين الاهتمام بها من مرحلة إلى أخرى عبر تاريخها الممتد عبر العصور، وحسبها أنها كشفت الكثير من التحيزات التي تغذَّى بها النَّقد عبر العصور، بل إن من أهم مكاسبها أنها أثبتت مدى هيمنة فرضياته السابقة على تفسيرات الناقد وطريقته وأحكامه، كما أن فعل القراءة إنما هو نتيجة لما يفترضه الناقد –سابقًا– من فهمه للنصوص وتأويلها، أي من خلال سياقات ثقافية وتاريخية وعلاقات اجتماعية[٢].

ثانياً: الجدوى من التنظير للأدب

تساءل الواد عن الحاجة إلى وجود الجهود التنظيرية لتناول الأدب ودرسه، وجعل ذلك مدخلًا له لتسويغ ظاهرة الإقبال الكبير على تنظير الأدب في القرن العشرين، فوجد أنَّ أيسر الأجوبة "أننا متى لم نحدِّد طبيعة الموضوع الذي ندرسه، ولم ندرك خصائصه الجوهرية، ولم ندرِ كيف نتعامل معه، ولم نجد إلى تقويمه سبيلًا ..."[٣]، ويؤكد الواد (٢٠٠٩م) أن النظريَّة الأدبية لاقت الاهتمام والعناية من قِبل المنظّرين، والمهتمّين بشؤون الأدب منذ العصر اليوناني، وتبعهم في ذلك الاهتمام نقاد العرب القدامى[٤]، وكان فيهما السلطة للشعر وحده، لكنه لم يوضح أبعادًا وحدودًا لذلك الحرص، ولعلَّنا نتساءل عن ملامح هذه العناية، كيف كانت؟ لنجدها عند فلاسفة اليونان؛ حيث كان سقراط أول من فطن إلى الفروق بين ملَكة إنتاج الأدب، وملَكة نقده عندما لاحظ بأن الشعراء يملكون موهبة قول الشِّعر، لكنهم عاجزون عن نقده، وتفسير مواطن الجمال والتأثير فيه، يقول: "ولقد سألت كلًّا منهم

(١) ص. ١٧٣.

(٢) الرويلي والبازعي، ٢٠٠٥م، ص. ٢٨١.

(٣) الواد، ٢٠٠٩م، ص. ١٧٤.

(٤) ص. ١٧٥.

عمّا عَنَاه بشعره، فلم يكن منهم من استطاع الإجابة عن سؤالي هذا"[١] وعلى ذلك فالنقد نوع خاص من العمل الأدبي يمتاز عن الأنواع الأخرى[٢]، ويرى تودوروف Todorov (١٩٨٦م) أنّ كتاب (فنّ الشعر) لأرسطو –الذي يعود إلى ألفين وخمسمائة سنة قبل الميلاد– هو أول الأعمال التي كرَّست كليًّا للنظريَّة الأدبية[٣]، وتمثل المحاكاة في الفكر اليوناني المبدأ الأول في التفكير الفلسفي والنقدي، عدَّها أرسطو أصلًا عامًا للفنون المختلفة والجامع بينها كالشِّعر والرقص والموسيقى والرسم، أمّا العرب فقد تركّزت بوادر النظريَّة الأدبية عندهم في تلك القضايا التي شغلوا بها، وكانت في مجملها تتعلق بتعريف الشِّعر، وتحدد طبيعته وأسسه وقيوده، ووضع مبادئ وقواعد النَّقد والمقولات أو التفسيرات المختلفة التي تتعلق بالدافع إلى قوله[٤]، منها على سبيل المثال: مؤلّفات الجاحظ، وابن قتيبة، وقدامة بن جعفر، وعبد القاهر الجرجاني، وقد تتعلق بالشعراء والموازنة بينهم، مثل: كتب الطبقات، والموازنة، ومن أهم القضايا التي عنوا بها تعريف الشِّعر ومعرفة حدوده ووظيفته، وقضية عمود الشِّعر، والطبع والصنعة، واللفظ والمعنى، وقضية الصدق والكذب وغيرها، ونجد جلَّ تلك القضايا عند أكثر من ناقد وأديب، مثل: قدامة بن جعفر، وابن رشيق القيرواني، والمعرّي، والحاتمي، وابن طباطبا، وعند الفلاسفة مثل: ابن سينا، والفارابي.

وعلى الرغم من أن أغلب منظري النظريَّة الأدبية يرون "ضرورة التمييز بين النظر إلى الأدب كنظام غير خاضع لاعتبارات الزمن، وبين النظرة التي تراه في الأصل على أنه سلسلة منظمة حسب نسق تاريخي، وعلى أنّه أجزاء متممة للعملية التاريخية"[٥] فإنّ الواد يرى أن عناية القدماء بالنظريَّة لا يتعدى حدود

(١) كرمبي، د.ت، ص.١.
(٢) الدويري، ١٩٣٨م، ص. ١١، ١٢.
(٣) ص. ١٥.
(٤) العلواني، ١٩٩١م، ص. ٣٢.
(٥) الحاردلو، ٢٠٠٠م، ص.١.

الثوابت والقواعد والمعايير، والاهتمام بتمييز أجناس الكلام والتفرقة بين بعضها، ولا يكتفي بذلك بل وضح أن أساس التفرقة بين النظريات الخاصة بالأجناس وبين النظريَّة الأدبية في أن الأولى: عبارة عن نشاط تنهض عليه حقيقة الممارسة، وهو منهجية لا بد منها لكل ناقد حتى عند الذين يناهضون فكرة التنظير لها، ففي خضم النصوص سرعان ما نجدهم يصدرون عن نظريَّة معينة من النظريات، وآراء جاهزة معدّة سلفًا، أي إنها لا تؤسس للكشوفات المعرفية التي تطرحها الأسئلة الجديدة، أمّا نظريَّة الأدب: فهي نظريَّة شاملة لا تنحصر في النطاق الفني ، ولا تتمثل في الأجوبة المختلفة أو المتضاربة، وإنما للكشوفات المعرفية التي تُصاغ من الأسئلة الجديدة(١).

إنّ طرح الواد (٢٠٠٩م) لاشتغال الأسلاف بالنظريَّة الأدبية في حدود الكليات، وتمييز أجناس الكلام إغفال منه لقيمة ما أتوا به فيما يتعلق بماهية الأدب، فهو يرى أن اهتمامهم بنظريَّة الأدب كان على طريقتهم "هذا أنهم لم يهتموا بنظريَّة الأدب نفسها"(٢)، ومن جهتنا نتساءل كيف للواد أن ينكر دور النُّقاد العرب القدامى خاصّة في جهودهم لتعريف الأدب، وتبيان وظيفته التأثيرية الجمالية التي كانت الركن الأساس عندهم، فالكلام عندهم إذا ارتفع وعلَا في نفسه – كما قال الباقلاني –: " كان له من الواقع في القلوب، والتمكن في النفوس؛ ما يُذهل، ويبهج، ويقلق ويؤنس، ويطمع ويؤيس، ويضحك ويبكي، ويُحزن ويفرح ..."(٣).

لكن ما يلفت الانتباه عند الواد في دراسته المقتضبة عن الأدب والتنظير، هو تسويغ التنظير الْمُكَثَّف للأدب، والذي رأى أنه برز منذ نهايات القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين، وهي البدايات الحقيقية في الشروع نحو التأليف في علوم الإنسان، وتكوين المعارف العلميَّة، وما يكاد القرن العشرين ينتصف حتى بلغ

(١) الواد، ٢٠٠٩م، ص. ١٧٥.

(٢) ص. ١٧٥.

(٣) إعجاز القرآن، ١٩٩٧م، ص. ٢٧٧.

التنظير الأدبي أوجه، وأهم المنظّرين الذين يرجع الواد (٢٠٠٩م) لهم الفضل في ذلك التنظير جان بول سارتر Jean Paul Sartre ١٩٤٨م في كتابه (ما الأدب؟) عام ١٩٤٨م، وتودوروف Todorov في كتابه (نظريَّة الأدب) عام ١٩٦٥م، أما أبرز من انتقد الأدباء والنقاد في عدم اتباعهم للنظريات المرسّخة للمناهج النَّقديّة والأدبية الناقد الفرنسي غاستون لانسون Gustave Lanson صاحب المنهج التاريخي الذي "كان يؤاخذ معاصريه من كبار النقاد بأنه لم تكن لديهم نظريَّة يتأسس عليها منهج، وأن كلامهم في الأدب ثرثرة لم يكن ينهض على منهجية"(١).

وإذا تساءلنا عن أهم خطوط التنظير التي اعتمد عليها أصحاب تلك المؤلفات، نجد أن تناول جان بول سارتر Sartre –بوصفه مفكرًا ومنتجًا للأدب الروائي والقصصي– طبيعةَ الأدب تَمَيَّزَ بالعمق والمنهجية على افتراض أن الأدب منتَج اجتماعي بالأساس، ذو صبغة فردية وجودية وفق مبدأ (الإنسان في العالم)، وباعتبار أن الشِّعر خطاب تشكل لغته غاية في ذاتها، ومن هنا كان بحثه عن طبيعة الأدب يتركز في محاور ثلاثة؛ هي: لماذا نكتب؟، لمن نكتب؟، وموقف الكاتب من العالم(٢).

أما مفهوم (القراءة) فقد تناوله سارتر Sartre تناولًا ظاهريًّا، وهو أمر طبيعي في عصره الذي لم يكن قد تشكّلت فيه نظريات القراءة، ولم تكن مصطلحاتها استقرت بعد، وتركزت مباحث سارتر Sartre في فرضيات أولية حول الاهتمام بنظريَّة التلقي؛ أي بالعلاقة بين المرسل/ الكاتب، والمستقبل/ القارئ من جهة، والقارئ/ المستقبل والنص من جهة ثانية، أضف إلى ذلك اهتمامه بمفرزات النَّقد الأيديولوجي، مثل مفهومي: الالتزام، والحرية الذي شاع استخدامهما في حقبة الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين(٣)، وبالرغم من أن كتاب رنيه

(١) ص. ١٧٦.

(٢) سارتر، د.ت، ص. ٩، ٤٣، ٧٠، ١٥٧.

(٣) الموافي، ٢٠٠١م.

وليك وآوستن وآرن (١٩٤٨/ ١٩٩٢م) قد وُسم بـــ(نظريَّة الأدب) فإننا لا نجد غير فصل واحد خُصِّصَ لهذا الموضوع، أما بقية الفصول فكانت تتحدث عن طبيعة الأدب، ووظيفته، والأدب العام والمقارن، والأدب والسيرة، وعلم النفس، والمجتمع، والفكر، والفنون الأخرى[١].

ثالثاً: مسوِّغات التأليف في النظريَّة الأدبية

يرى تودوروف Todorov (١٩٨٦م) أن الأدب ارتبط دائمًا بالوعي اللغوي الذي من شأنه أن يثير الاهتمام والمتعة لدى المتلقين، وهو كلام أريد له الديمومة والاستمرار لما يحمله من سمات فنية تفوق الكلام اليومي العادي، وبناءً على ذلك فإنّه حتّى لو امتنعنا عن تسويغ التأليف في ماهيّة الأدب وحدوده ومجالات النظريَّة الأدبية، فإنّ الأدب يحتفظ دائمًا في داخله ببُعد ميتا- أدبي Metalitteraire[٢]، زيادة على ذلك فقد كشفت المستجدّات في تصنيف وتشريح العلوم الإنسانية أن الأدب ظاهرة مهمّة، له وظائفه الجماليَّة والتعليمية، بل إنّه مستودع الإرث الثقافي والتاريخي العابر لكلِّ أمّة؛ لذلك كثر، وعم التأليف فيه، والتساؤل عن طبيعته، وحدوده ووظائفه ومجالاته سواء من المشتغلين به من أصحاب النظريات النَّقديَّة والأدبية، أو من غيرهم من أصحاب الهوايات والأنشطة العلميَّة والثقافية والإعلامية، ويرجع الواد هذه الظاهرة لعدّة مسببات؛ من أبرزها:

أ- في بدايات القرن العشرين كانت العلوم الإنسانية حديثة النشأة، لم تستقر مصطلحاتها، ولم تضبط حدودها، وكان الأدب من ضمن اتجاهات ومجالات اشتغالها "فقالت في شأنه كلامًا توسعه لمشمولات نظرها، واختبار مكاسبها"[٣]؛ لذلك نجد الأدب يتردّد فيما يُعرف بالنقد النفساني، والماركسي، والوجودي، والنقد الاجتماعي وغيرها.

---

(١) ص. ٣١، ٤٣، ٦٧، ١٠٣، ١٧٣.

(٢) ص. ١٤.

(٣) الواد، ٢٠٠٩م، ص. ١٧٦، ١٧٧.

ب- إن كثيرًا من الأبحاث والدراسات الإنسانية التي تشبه الأدب إلى حدٍّ كبير قد تحولت إلى العلمنة، وأحرزت تطورًا وتقدمًا ومنهجية علمية مقننة وصحيحة؛ مما أغرى المنظرين للنظريات الأدبية والنقاد للتحول بالأدب إلى العلميَّة، وكان من أبرز هؤلاء الشكلانيّون والبِنيويّون الذين نادَوا بالصرامة العلميّة، وضرورة التوثيق، والتحرّي.

ج- في أوروبا - ومنذ القرن التاسع عشر - أدرج الأدب في صلب المناهج المدرسية، فأصبح مادّة للدرس في التعليم العام، والمعاهد، والجامعات؛ ليعمّ ذلك التوجه العالم، ومن شأن ذلك الاهتمام بحدود الأدب وتعريفاته ووظائفه والفائدة من تدريسه، فكثرت المؤلَّفات التي عُنيت بمادته وطرائق تدريسه(١).

رابعاً: مجالات النظريَّة الأدبية

يُظهر لنا العرض السابق ما يؤكد ما ذهب إليه الواد في بداية مقاربته حول النظريَّة الأدبية، وأننا أمام مشروعٍ شاسعٍ يحمل في طياته حمولة شاسعة متعددة القضايا والمسائل، قابلة للانتشار والاتساع، بل إن كولر Clare يرى أن من سمات نظريَّة الأدب التي تثير الخوف وقلق المنظرين أنها لا نهائية، فهي شيء لا يمكن إتقانه على الدوام، تزداد باستمرار، وليست مجموعة من النصوص القابلة للتعلم والحفظ، فيمكن معرفة ماهيتها وحدودها(٢)، وعلى ذلك فإننا إذا قارنَّا بين أهم مجالات النظريَّة الأدبية بين الواد وغيره من النُّقاد نجد أن أغلب منظّريها رأوا أنها تبحث في نشأة الأدب، وطبيعته، ووظيفته، وأنواع الأجناس الأدبية وطرق تحليلها، وتلقيها من خلال أركان العملية الأدبية المرسل/ الكاتب، الرسالة/ المادّة، والمستقبل/ القارئ(٣). ولا تختلف مجالات التنظير للأدب عند الواد (٢٠٠٩م) عمن سبقوه في التنظير، فهو يشمل:

---

(١) الواد، ٢٠٠٩م، ص. ١٧٦، ١٧٧.

(٢) كوللر، ١٩٩٧/ ٢٠٠٣م، ص. ٢٩، ٣٠.

(٣) الماضي، ١٩٩٣م، ص. ١٢.

١- حدّ الأدب.

٢- حدّ المؤلّف وعلاقته بعمله.

٣- حدّ الأعمال وعلاقتها بمراجعها، وبالمادّة الأوّلية التي تكوّنت منها؛ أي: باللغة واستعمالاتها، وعلاقتها بالمتلقّي والقراءة، وعلاقة بعضها ببعض، وعلاقتها بالفنّ[١].

خامساً: من مسائل التنظير في الأدب

أ- حدُّ الأدب:

ولأنّ التنظير في كلّ مجال من المجالات السابقة يستدعي مباحث قائمة برمتها، ارتأى الواد أن يعالج مسألة جوهرية واحدة لم تَغِبْ عن أذهان النُّقاد والمنظرين قديمًا وحديثًا، وهي (حدُّ الأدب)، فما الأدب؟ ولمَ اختار الواد الحديث عنه، رغم تكرار معالجته له في أكثر من مبحث في مؤلفاته فقد عدَّه أحد المفاهيم الكبرى التي حاول إعادة قراءتها من منظور مصنَّفات تاريخ الأدب العربيّ؟

قبل الإجابة عن موقف الواد من تعريف الأدب، فإننا نجد أن كثيرًا من منظري الأدب يجدون أن أول مشكلة تقابلهم في مادة البحث الأدبي الإجابة عن سؤال: ما الأدب؟ وما طبيعته؟ وما الذي يخرج عن حدوده ونطاقه؟ وقد اشتهرت العديد من تعريفات الأدب، منها: تعريف كل من وليك ووارن (١٩٤٨/ ١٩٩٢م) في كتابهما (نظريَّة الأدب) بأنه: "كل شيء مطبوع" وعلى ذلك يدخل في مادّته كلُّ الموادِّ التسجيليّة، والوقائع التاريخيّة، المخطوطة والمطبوعة، وذهب إدوين جريلو Edwin Greenlaw إلى أنّ كل ما يتصل بتاريخ الحضارة والثقافة والعلوم القديمة مثل: الطب، وحركة الكواكب وغيرها قديمًا وحديثًا يدخل في نطاق الأدب[٢]، وكما يظهر فإن هذا التعريف يسمح للناقد بارتياد العديد من الميادين والموضوعات التي تجاور حدوده، ولعلَّ من أهم المآخذ على هذا المفهوم أن الدراسات الأدبية باتت

(١) ص. ١٧٧، ١٧٨.

(٢) ص. ٣١.

مُكْتَظَّة بأمور تتعلق بتاريخ الأمم وحضارتها، وسقطت الفوارق بين الأدب وغيره من المجالات الأخرى، بل إن قيمة الأدب ونتائجه ارتبطت بما تقدمه تلك القطاعات المتاخمة.

وهناك من يعرّف الأدب استنادًا على القيمة الجماليَّة مضافًا إليها عمق الفكر وسموُّه، مع الفنيَّة في الأسلوب وقوّة العرض، أي إن الشكل والتعبير الأدبي هو الأدب مهما كان موضوعهما، ويُؤخَذ على هذا التعريف الشمولية والبعد عن التخصص؛ فمعظم المؤلفات التي تنتهج تاريخ الأدب تتناول مع الشِّعر والسرد تخصصات مثل الفلسفة، والتاريخ، والسياسة، وعلم الطبيعة، فيتحوّل مؤرّخ الأدب إلى مؤرخ لكل هذه الفروع المعرفية، وجامع لشتاتها، يُقحم نفسه في تخصصات ليست له[١]، وهناك من يعرّفه بأنه: أدب الخيال، أي كلّ "كتابة تخيلية imaginative بمعنى التخييل Fiction أي ليست حقيقية بالمعنى الحرفي للكلمة"[٢]، فتكون التفرقة بين الأعمال على أساس اللُّغة، أي بين اللُّغة الأدبية، واللغة العلميَّة، واللغة اليومية، ويُؤخَذ على هذا التعريف اقتصاره على إحدى ميزات الأدب، وتجاهل ما دونها.

هذه النماذج من تعريفات الأدب وغيرها لا يقف أمامها الواد كثيرًا؛ لأن أكثرها معروف ومتواتر لدى أغلب الدارسين، لكنه صبّ جام اهتمامه على بعض الآراء التي تفادت الخوض في مفهوم الأدب أو تعريفه أو الحديث عن طبيعته، أبرزها قديمًا تعريف أرسطو Aristote في القرن الثالث قبل الميلاد؛ حيث رأى أنّ (الفنّ الذي يَستعمل الكلام في النثر أو الشِّعر لم تُعرف بعدُ له تسمية)[٣]، وتعريف ابن خلدون لعلم الأدب – في مقدّمته – بأنّه: العلم الذي "لا موضوع له، ينظر في إثبات عوارضه أو نفيه، والمقصود عند أهل اللسان ثمرته، وهي الإجادة

(١) وليك ووارن، ١٩٤٨/ ١٩٩٢م، ص. ٣١، ٣٢.

(٢) إيجلتون، ١٩٨٣/ ١٩٩٥م، ص. ٩.

(٣) الواد، ٢٠٠٩م، ص. ١٧٨.

في فني المنظوم والمنثور ..."[١]، وتبعهم في العصر الحديث لودفيغ فتغنشتاين Ludwig Wittgenstein، في أنّ الأدب هو: (الفن الذي يُعرف، ولا يعرَّف) ، ورولان بارت Roland Barthes في أنّ الأدب هو: (ما يتمُّ تدريسه).

هذه التعريفات وأمثالها تكشف أن الواد أراد التأكيد على أنّ الأدب فنٌّ شديد التعقيد لا ينصاع للضبط والتحديد، وأن محاولة التعرف إلى طبيعة الأدب وضبط حدوده أكثر عمقًا مما يظهر للدارسين والنقاد، "فلم يحصل بين مختلف المدارس والاتجاهات والمقاربات إلّا اتّفاق واحد، وهو أن الأدب عصيٌّ عن التعريف"[٢] .. وفيما سبق ما يعلل فرضية كولر Clare السابقة بأن النظريَّة الأدبية مصدر خوف وقلق؛ لأن سماتها لا نهائية.

أما عن أسباب استحالة وضع تعريف للأدب، فتعود إلى أن خصائصه وسماته متبدلة "وأنّ حدَّ الأدب ليس صعبًا فقط، وإنما هو مستحيل؛ لأن المجهود التعريفي فيه يروم الإحاطة بما لا يحاط به، ويهدف إلى تسوير مالا يسور"[٣]، ومن ناحية أخرى حاول كولر Clare توضيح السمات المتحولة في فرضيات أبرزها: أن النظريَّة تضم معارف متداخلة، فالأدب خطاب له نتائج خارج معرفته الأصلية، كما أن النظريَّة الأدبية نظريَّة تأملية تحليلية تضمّ العديد من المعارف والأجناس واللغة والكتابة والمعنى والذات، إضافة إلى أنها انعكاسية؛ أي تفكير حول التفكير في المقولات، وفي الأدب، وفي سائر الممارسات الخطابية، نضيف إلى ذلك أنها نظريَّة مراوغة تفسد وتناقض كل المسلمات والفروض التي عمد إليها النُّقاد والدارسون في أوقات سابقة، أو موضوعات أخرى[٤].

---

(١) ابن خلدون، ١٩٨٨م، ص. ٧٦٣.

(٢) الواد، ٢٠٠٩م، ص. ١٧٩.

(٣) الواد، ٢٠٠٩م، ص. ١٧٩.

(٤) كوللر، ١٩٩٧/ ٢٠٠٣م، ص. ٣٠، ٣١.

ولعلَّ هذه النتيجة تُسْلِمنا إلى البحث عن موقف الواد ممّن وضعوا تعريفًا للأدب؟ خاصة أن تعريفاتهم له كانت تصبُّ في صالح الحاصل من نصوصه في حقبة من حِقب التاريخ الأدبية، ليتمكنوا من تقويمه والحكم على ذلك الإبداع الجديد، لكنّ الواد لا يقبل بهذا الموقف أيضًا؛ لأن من شأن التعريف أن يضرَّ بحرّيّة الإبداع، الذي من أبرز سماته الاندفاع نحو التجديد والمستقبل، بل إن أيَّ محاولة لتقييد ذلك الإبداع قد أفضت تاريخيًّا إلى الإفلاس الذي أحوجهم لاحقًا إلى الاقتراض والاغتراب.

إنّ المتأمل في جميع الدراسات التي رصدت تعريف الأدب والبحث عن ماهيته، لم تتوقّف عند حدود التعريف، بل تعدّته لمقاربة وظيفة الأدب، والبحث في مسألة القيمة كمباحث نراها مكملة لماهيته، لكنها – في نظر الواد – جاءت اضطرارية لتفسيره، فالعجز عن وضع تعريف للأدب لا يعني الإقلاع عن محاولة وضع حدود له، ومعرفة وظائفه، ونستدل على هذا الموقف بأن الأدب كان موجودًا قبل ظهور المصطلح الذي يدل عليه، وقبل التنظير له(١). وعلى ذلك اسْتُبْدِل سؤال ما الأدب؟ وَوُضِع محلَّه سؤال آخر هو: لماذا يُكتب الأدب؟ ولماذا يقرؤه الناس؟

ب- القيمة والتنظير:

في ظل العجز عن تسوير الأدب ومعرفة ماهيته، ما الفائدة – إذن – من الجهود التي بذلها المنظّرون والنقاد والدارسون لتعريفه وضبط حدوده؟

يرى الواد (٢٠٢٠م) أن المجهود التنظيري، وإن كان عاجزًا عن بلوغ مراميه في وضع حد للأدب إلا أنه مفيد في تفسير الظواهر الأدبية من جهة، وفي طرح مسألة القيمة التي تتعلق بالأدب من جهة أخرى. إن طرح مسألة القيمة يجعل موقف التنظير للأدب منها كمن يقع بين المطرقة والسندان، فمن ناحية الحديث عن مسألة القيمة ضرورة لا يمكن تجاهلها في قضية التنظير للأدب والتعامل معه، ومن

(١) الواد، ٢٠٠٩م، ص. ١٨٠، ١٨١، ١٨٢.

ناحية أخرى الحديث عن القيمة يبرز معه ما يتفاداه الدارسون، وهو أن القيمة لا يمكن معالجتها بالصرامة الموضوعيّة، وتطبيق القوانين والقواعد العلميَّة فحسب، بل يدخل فيها كثيرًا من الذاتية مثل التأثير والتذوق والانطباع؛ لأن النصوص الأدبية تتفاوت في قيمتها وجودتها، الأمر الذي يجعل النُّقاد والمنظرين في حيرة من أمرهم؛ فلا مفرَّ من وضع المعايير التي يتقدم فيها نصٌّ ما على الآخر، وهي معايير مختلفة وسريعة التحول من زمن إلى آخر، ومن مكان إلى آخر، فالمتلقُّون لا يمكن أن يتّفقوا على أفضل الشِّعر، ولا أجود ما جاء من السرديّات[1]. ومما يعقّد الأمر في رأي الواد (٢٠٠٩م) هو أن القيمة قد واجهت –في أثناء معالجتها– الارتباك والاضطراب الواضح، ويمكن تلخيص هذا الخلط في الملاحظتين الآتيتين:

١ـ القيمة بين المعرفة والجمالية:

عالج العديد من النُّقاد والدارسين القيمة في العمل الأدبي معالجة غير قويمة، وكان الخلط والاضطراب أهم ما يميز جهودهم في التفرقة بين السؤال المعرفي المهتمّ بالأدب؛ أي هل العمل أدبيًّا أو غير أدبي؟ وبين السؤال القيمي المهتم بالأعمال الأدبية الجيدة، أي: هل النصُّ من الأدب الجيّد أو غير الجيد؟ وبتعبير آخر: فإن أي عمل أدبي يواجه سؤالين؛ الأول معرفي يتعلق بانتمائه إلى جنس الأدب أو عدم انتمائه، وهو سؤال يتطلب للإجابة عنه معرفة المقوّمات والمعايير لكل شكل أدبي؛ التي تساعد في تقويمه، وإصدار الحكم عليه، وتصنيفه الأجناسي، والثاني: سؤال جمالي قيمي يتعلق بحظ العمل من الإجادة، والإتقان، وهذا السؤال يستلزم الإجابة عنه استخدام مصطلحات متناهية في الغرابة والغموض، مثل: (المتانة، والجودة، والسحر، والتأنق).

(١) ص. ٢٤٣ – ٢٤٥.

٢- القيمة بين الشكل والمضمون:

ومن ناحية أخرى يجد الواد أن دخول المدارس الأدبية والنقدية أكثر صعوبة وتعقيدًا من ضبط مسألة القيمة، وبخاصة تلك الاتجاهات التي طرحت موضوع التمييز بين الشكل والمضمون؛ لتفسير القيمة وتحليلها، فمعروف أن الشكل يبرز المقومات، ويضبط حدود الجنس الأدبي؛ فيسهل معرفة الأدبي وغير الأدبي، وعلى ذلك فالشكل يُمتِع ويُدهِش المتلقين، أما المضمون فيصب في معرفة الدلالة والمعنى؛ أي يفيد في المعرفة وزيادة الوعي والإدراك، غير أن هذه الاتجاهات عارضها اتجاه آخر، وهو (الاتجاه الشكلاني) في دراسة الأدب، فقد اعترض أصحابه على التمييز بين الشكل والمضمون، ورأوا أن الأدب شأنه شأن سائر الفنون نشاط غير غائي، ولا يطمح إلى فائدة، بل إن غايته تقف عند ذاته لا يتعداها.

ومن ناحية أخرى يأخذ الواد على جميع الاتجاهات استخدام المفاهيم المبهمة، مثل: (السحر، والروعة، والدهشة، والمتانة، والملاحة ...)، التي لا تكشف عن معرفة، ولا تؤسس لمعايير ثابتة، كما أن عوامل قيمة العمل الأدبي تختلف وتتمايز من عصر إلى آخر، فضلًا على أن الاتجاهات التي لجأت إلى التمييز بين الشكل والمضمون وفق معايير ومقومات أجناسية خلطت بين مقومات التجنيس من جهة ومقومات القيمة من جهة أخرى، فضلًا على أنها استندت أساسًا إلى إمكان الفصل بين ما لا يُمكن فصل بعضه عن بعض، فأين يقف الشكل؟ وأين يبدأ المضمون؟[١]، وأما الاتجاه الذي يَعُدّ الأدب (غير غائي) شأنه شأن الفنون الأخرى، يقصي بهذا الحكم الكثير من الأعمال والنصوص الخالدة بقيمتها المعرفية والإدراكية، وعلى ذلك فإن (مسألة القيمة) هي الأخرى لا يمكن تأطيرها وضبط حدودها.

(١) ص. ١٨٤.

وقبل أن نبرح مسألة القيمة؛ لا بد أن نترك جوابًا من الواد على سؤال بقي مطروحًا أمام منظري النظريَّة الأدبية، هو الآتي: ما الذي يجعل أعمالًا من بين الأعمال الأدبية تبدو أفضل من سواها، أو محقِّقة للقيمة فيها؟ وبتعبير آخر: أين تكمن القيمة في الأعمال الأدبية؟

إن القيمة في العمل الأدبي جدل قائم بين الفلاسفة والنقّاد، فلا يمكن حصرها في المعرفة ولا القيمة الجمالية، ولا تتحدّد أيضًا في المتعة أو الإفادة رغم وجودها مجتمعة في كل الأعمال والنصوص التي توصف بالأدبية، وهو ما جعل ناقدًا مثل تيري إيغلتن Terry Eagleton (٢٠١٣م) يخصص فصلًا كاملًا في كتابه: (كيف نقرأ الأدب؟) حول القيمة، يباشره بسؤال محوري حول الشيء الذي يجعل من العمل الأدبي عملًا جيدًا أو رديئًا أو وسطًا بين الجودة والرداءة؟ ويضع عدة فرضيات كانت إجابات فعلية لدى المنظرين والنقاد في القرون المنصرمة، أهمها: "عمق البصيرة الواقعية، والوحدة الشكلية، ونيل الإعجاب الشامل، والتعقيد الأخلاقي، والرؤية التخيلية، والابتكار اللفظي"(١)، ثم يناقش معايير كل قيمة في النّقد وعند النُّقاد؛ ليخرج بنتيجة أن تلك المعايير ليست ثابتة ولا دائمة، فلا يمكن الركون إليها رغم جودتها وشيوع استخدامها في عصر ومكان معين، وقد أشار الواد إلى إن أصحاب الجهود النظريَّة قد اعتادوا وضع المعايير، وتبيان خصائص النصوص في الشكل والمضمون أو الإفادة والمتعة، حتى خُيِّلَ لهم أنهم استطاعوا ضبطها والنفاذ إلى حقيقتها الأدبية. إن أدبية الأعمال –كما يؤكدها الواد في أكثر من موضع في دراساته– تتجسم في الطاقة الكامنة والمتجددة في تلك الأعمال، التي لا يمكن أن تستهلكها قراءة من القراءات مهما كانت جودتها ودقتها وصرامتها العلميَّة، إن قيمة الأعمال مرهونة بـــ (الظهور/ والكمون) الزمني والمكاني، وهي ليست معطيات ثابتة ودائمة على نحوٍ مستمر، بل لكل زمان ومكان قيمه ومعطياته الخاصة، تتحقق

(١) ص. ٢١٩.

في عمل أدبي معين فيحوز قيمة وتأثيرًا في جمهور ذلك العصر، لكنها لا تظل كذلك فقد تفقد قيمتها تلك في زمن ومكان آخر وهكذا. وبتعبير آخر: إنها "تظل منفتحة لاستقبال المزيد من الأسئلة لتجود بالمزيد من الأجوبة، فهي كالطاقة الكامنة التي كلما تفاعلنا معها استجابت؛ ولذلك فهي تقبل أن تستعمل بعض مكوناتها في شتى المجالات ..."[١]، وبناءً على ذلك نجد أن الواد (٢٠٠٩م) يتصدى للدفاع عن مدارس الحداثة، واستغراقها في التنظير، ويردُّ على من يذهب في الظنّ بأن الانغماس في الشكل هو الذي أضرّ الأدب، وهذا غير صحيح؛ ويعلّل ذلك بميل النقاد الجدد في إنجلترا منذ الثلاثينيّات إلى إحياء النقد الثقافي، هذا الموقف من شأنه أن يجعل الأدب مجرد وعاء قابل لأن يوضع فيه أي سائل من غير جنسه، وهو المادة الثقافية، كما أن عدم التمسك بمبادئ الشكلانيين لم يمنع من تجريد الأدب من قيمته، فالفاعل أقوى أثرًا، إنه فاعل حضاري متفاعل مع العوامل الاجتماعية ومتعايش معها، لقد فرضت النهضة العلميَّة رفع منزلة العلوم ونقل المعارف من مختلف المجالات الفلسفية والفكرية إلى ميدان العلوم، هذا التطوّر العلميّ والتقنيّ في العلوم الطبيعية والإنسانية كان على حساب الأدب الذي جُرِّدَ من منزلته المعرفية والفنيَّة، معنى ذلك أن خسارة الأدب لموقعه بدأت قبل الشكلانيّين والدعوة إلى استقلاله، فكأنّ الإغراق في التنظير حركة دفاعيّة عن منزلة الأدب[٢].

(١) الواد، ٢٠٢٠م، ص. ٢٤٥.

(٢) ص. ١٨٩، ١٩٠.

النتائج:

وخلاصة القول فيما يخصُّ هذا المطلب:

١- إنَّ الأدب مجال عريض لا يمكن حدُّه أو تأطيره، إلّا في المنجز والحاصل فقط، مثل الشِّعر في عهد محدد أو زمن معين، وما سوى ذلك فهو انفتاح على المستقبل.

٢- إنَّ مفهوم الأدب من الموضوعات التي تطورت في فكر الواد النقدي ابتداءً من اشتغاله بالتأليف في مناهج تاريخ الأدب عند العرب، وانتهاءً بالتنظير للأدب.

٣- إنَّ الخلل في المجهود التنظيري للأدب ناجم عن تعميم ما حصل في الماضي، وأصبح ثابتًا في الإدراك والعلم على ما سيقع في المستقبل؛ فالأدب في الحقيقة ما هو إلا: "ممارسة للحرية باتجاه المستقبل؛ لذلك لا توجد تسمية له، ولا يمكن حدُّه بموضوع أو بطريقة ما من طرق صياغته"(١).

(١) الواد، ٢٠٠٩م، ص. ١٩١، ١٩٢.

المصادر والمراجع

١- ابن خلدون، عبد الرحمن محمد. (١٩٨٨م). تاريخ ابن خلدون، دار الفكر.

٢- أوموادن، رابح. (٢٠١٦م) النَّظريّة الأدبية: المفهوم، النشأة، القضايا، مجلة الخطاب.

٣- إيجلتون، تيري. (١٩٩٥م) نظريَّة الأدب، ترجمة: ثائر ديب، منشورات وزارة الثقافة.

٤- إيجلتون، تيري. (٢٠١٣م). كيف نقرأ الأدب؟ ، ترجمة: محمد درويش، الدار العربية للعلوم ناشرون.

٥- الباقلاني، أبو بكر محمد. (١٩٩٧م). إعجاز القرآن الكريم، تحقيق: السيد أحمد صقر.

٦- البطحاوي، هادي. (٢٠٢٢م). نظريّة الأدب: الحدود والمجال، دار الشؤون الثقافيّة العامّة.

٧- تودروف، تزفتان. (١٩٨٦م). تطوّر النَّظريّة الأدبيّة، ترجمة: مها جلال، مجلة المقالات.

٨- الجوهري، إسماعيل. (١٩٨٧م)، الصحاح- تاج اللُّغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عطار، دار العلم للملايين.

٩- الحاردلو، إبراهيم أحمد. (٢٠٠٠م). قراءة في نظريَّة الأدب عند العرب، مجلة الآداب.

١٠- الدويري، عزمي. (١٩٨٣م). نظريّة الأدب، المجلة الجديدة.

١١- الرويلي، البازعي، ميجان، سعد. (٢٠٠٥م). دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربيّ.

١٢- سارتر، جان بول. (١٩٩٠م). ما الأدب؟ ، ترجمة: محمد غنيمي هلال.

١٣- صليبا، جميل. (١٩٨٢م)، المعجم الفلسفي، ج٢، دار الكتاب اللبناني.

١٤- العلواني، مصطفى. (١٩٩١م). نظريّة الأدب عند العرب، الموقف الأدبي.

١٥- كُرمبي، لاسل آبر (د.ت). قواعد النّقد الأدبي، ترجمة: محمد عوض، سلسلة المعارف العامّة.
١٦- كوللر، جوناثان. (٢٠٠٣م). مدخل إلى النَّظريّة الأدبية، ترجمة: مصطفى بيومي، المجلس الأعلى للثقافة.
١٧- الماضي، شكري. (١٩٩٣م).في نظريَّة الأدب، دار المنتخب العربي.
١٨- مجمع اللّغة العربية. (٢٠٠٤م). المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدوليَّة.
١٩- مجموعة من المؤلِّفين السوفياتيين. (١٩٨١م) الموسوعة الفلسفيّة، ترجمة: سمير كرم، دار الطليعة للنشر.
٢٠- الموافي، عبد العزيز. (٢٠٠١، أكتوبر ١). ما الأدب؟ بين سارتر وإيجلتون، مجلة نزوى.
٢١- الواد، حسين. (٢٠٢٠م). الأعمال النّقديَّة الكاملة، ج٤، دار الجنوب للنشر.
٢٢- الواد، حسين. (٢٠٠٩م) نظر في الشعر القديم، كرّسي عبد العزيز المانع لدراسات اللّغة العربيّة وآدابها بجامعة الملك سعود.
٢٣- وليك، وآرن، رنيه، آوستن (١٩٩٢م). نظريّة الأدب، ترجمة: عادل سلامة، دار المريخ للنشر.

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	الصفحة
١-	ملخص	١٧٩٥
٢-	Abstract	١٧٩٦
٣-	المقدّمة:	١٧٩٧
٤-	الدراسة:	١٨٠١
٥-	أولًا: النظريَّة الأدبية - النشأة والتطور	١٨٠١
٦-	ثانيًا: الجدوى من التنظير للأدب	١٨٠٦
٧-	ثالثًا: مسوِّغات التأليف في النظريَّة الأدبية	١٨١٠
٨-	رابعًا: مجالات النظريَّة الأدبية	١٨١١
٩-	خامسًا: من مسائل التنظير في الأدب	١٨١٢
١٠-	النتائج:	١٨٢٠
١١-	المصادر والمراجع	١٨٢١
١٢-	فهرس الموضوعات	١٨٢٣